

هل فشل مشروع أنطون سعادته؟

هل فشل مشروع أنطون سعادته؟

في عددها الصادر يوم الأربعاء الواقع فيه 28-10-2020 نشرت صحيفة الأخبار عددا من المقالات عن الحزب السوري القومي الاجتماعي بينها مقال بعنوان "لماذا فشل مشروع أنطون سعادته؟" استثار هذا العنوان عددا من الردود على مواقع التواصل الاجتماعي من بينها مقال كتبه الأمين أحمد أصفهاني بعنوان "مشروع سعادته لم يفشل". هذا المقال بدوره استجر نقاشا واسعا نختار منه رسالة تتضمن ملاحظات كتبتها الدكتورة صفية سعادته إلى الأمين أحمد كإغناء للنقاش. الأمين أحمد، بدوره، كتب مقالا تناول فيه معظم الردود على مقالته الأولى. تنشر الفينيق المقالات الثلاث هنا، بعد الحصول على الأذن من أصحابها، وذلك قياما منها بواجب تعميم النقاش المفيد.

المقال الأول:

لا... مشروع سعادته لم يفشل!

أحمد أصفهاني

من الواضح أن مشروع أنطون سعادته النهضوي ما يزال مطروحا بقوة على بساط البحث، سلباً أو إيجاباً. وهو مشروع منفصل عن أزمات المؤسسات الحزبية المختلفة، وإن كانت الممارسات تشوه الصورة الحقيقية للحركة القومية الاجتماعية. ومن هذا المنطلق فإن مقال عبد المنعم علي عيسى في "الأخبار" (28 تشرين الأول 2020) يلامس بعض الجوانب، لكنه يبتعد عن جوانب أخرى أكثر أهمية.



يذكر الكاتب أن سعادته شخص معوقات نهوض المنطقة "بأمرين اثنين اعتبرهما المانعين الأكبرين أمام وضع أرجلها (الأمة) على سلم الارتقاء الحضاري"، ويقول إن أولهما "الهجمة الغربية الشرسة"، وثانيهما "حالة التشظي الديني والمذهبي والإثني"! والحقيقة أن هذين الأمرين هما نتاج لمعضلة أخطر ألا وهي غياب الوعي القومي وضياع الهوية القومية. فما كانت الهجمة الغربية لتحقيق أهدافها لو أن الشعب السوري (وقياداته طبعاً) كانت على سوية معقولة من وعي المصالح القومية.

يقول سعادته في رسالته إلى المحامي حميد فرنجيه بتاريخ 10 كانون الأول 1935، أي بعد انكشاف أمر الحزب: "... وأسست الحزب بصرف النظر عن وجود الانتداب أو عدم وجوده، فالحزب لم ينشأ خصيصاً لأن الانتداب موجود، بل لجعل الأمة السورية موحدة وصاحبة السيادة على نفسها والإرادة في تقرير مصيرها".

عكف سعادته على بناء الأفراد
واحدًا واحدًا، نجح مع
بعضهم وفشل مع آخرين.
وواجه في معركته النهضوية
تنبأً متعدد الرؤوس لم يترك
سلاحاً إلا واستخدمه ضد هذه
النهضة الوليدة.

لم يكن مشروع سعادته سياسياً، وإن كان العمل السياسي لا ينفصل عن أي نشاط حزبي. يقول في خطاب ألقاه في الكورة سنة 1937: "نحن عقيدة ثقافية اجتماعية اقتصادية سياسية..." (لاحظ أن السياسة في مرتبة متأخرة). لقد أدرك بوضوح حالة الانحطاط التي وصلت إليها جموع الشعب، وعلى الأخص "النخب"، فصمم على بناء الإنسان الجديد المؤهل لحمل أعباء النهضة. بل أن غاية الحزب كما صاغها هي، في جزء منها، "تحقيق نهضة سورية قومية اجتماعية تكفل تحقيق مبادئه وتعيد إلى الأمة حيويتها وقوتها".

عكف سعادته على بناء الأفراد واحداً واحداً، نجح مع بعضهم وفشل مع آخرين. وواجه في معركته النهضوية تنبأً متعدد الرؤوس لم يترك سلاحاً إلا واستخدمه ضد هذه النهضة الوليدة. في 12 تموز 1948، أي قبل سنة من مؤامرة الإعدام، خاطب سعادته المدرسين القوميين الاجتماعيين قائلاً: "فليس، ولم يكن قط، للفوضى التي تتخبط فيها الأمة السورية مثيل، ولم يبلغ الفساد في أمة من الأمم، في أي وقت من الأوقات، مبلغه في أمتنا إلى هذا الوقت".

إن الحكم على مشروع سعادته، فشل أو لم يفشل، لا يكون بمقياس القيادات التي تعاقبت على الحزب السوري القومي الاجتماعي. ذلك أن غالبيتها أساءت للنهضة، أو انحرفت عنها، أو عجزت عن إدراك المقاصد السامية التي سعى إليها المؤسس. وهذا لا يعني أن مفاعيل التغيير النهضوي لم تنتشر في أوساط الشعب، لكنها فشلت في أن تتحول إلى "حركة الشعب العامة"، حسب تعبير سعادته. وهذا يأخذنا إلى السؤال الذي يتجنب طرحه كثيرون: ماذا عن مسؤولية الشعب الذي خاطبه سعادته، وجاهد من أجل عزه وكرامته، وقدم حياته من أجل رفعتة؟

دعونا نقرأ هذا المقطع من رسالة كتبها سعادته بتاريخ 9 تموز 1938: "فحاولت جهدي في الوقت الذي سمحت لي به الظروف، أن أوقظ الأمة وأنبهها للأخطار المداهمة. ولكن المادية القاتلة المسيطرة، ووجود صحافة واسعة النطاق تخدم مصالح الأجانب الاستعماريين وتندفع في خدمتها عند أقل إشارة، وانعدام حرية القول والاجتماع، وقيام إدارة تجرد كل واحد فيها من أي شعور حقيقي بالقومية أو محبة الوطن، جعلت مجهودي يضيع قسم كبير من مفعوله السريع ويقتصر على قسم من القوميين

الواعين”.

نحن نعتقد أن مشروع سعادته لم يفلح، فما يزال الفكر القومي الاجتماعي راهناً ومعاصراً في وجه التحديات المتراكمة. الذي فشل بالفعل هو هذه الأجيال التي تغافلت عن الأخطار القومية المحدقة، واستكانت إلى النزعات الكيانية والدينية والطائفية والعرقية. وسنتجراً أكثر لنقول إن الذين فشلوا هم “النخب” الحزبية والفكرية لعجزها عن الارتقاء إلى مستوى النهضة، و”الشعب” الذي استعذب سلاسل الانحطاط والهوان. فلا غرابة أن سعادته أطلق صرخة أمل بقوله: “إننا نعمل لأجيال لم تولد بعد”.

المقال الثاني:

رسالة الدكتورة صفية سعادته:

ملاحظات على مقالة أحمد أصفهاني عنوانها: “لا، مشروع سعادته لم يفلح”.

أود التأكيد بأن الفكر هو مجال حر، هو تداول للأفكار والمبادئ التي قد تترجم على أرض الواقع أو لا تترجم، لكن في كلا الحالتين تظل الأفكار متداولة، ويتم النقاش حولها كما نعمل حين نقرأ جمهورية أفلاطون مثلاً، وهي كُتبت منذ أكثر من ألفي سنة.

لذلك لا نحكم على الأفكار بالنجاح أو الفشل، إنما نستطيع أن نحكم على حزب بفضله في تعميم الأفكار التي يتبناها، أو فضله في تطبيقها.

يحمل الصحفي أحمد أصفهاني الشعب مسؤولية الفشل إذ يقول: “ماذا عن مسؤولية الشعب الذي خاطبه سعادته؟ ... الذي فشل بالفعل هو هذه الأجيال التي تغافلت عن الأخطار القومية المحدقة” ويشدد “أن المعضلة هي في غياب الوعي القومي وضياع الهوية القومية”.

لو كانت الهوية القومية موجودة لم تكن بحاجة لفكر كفكر أنطون سعادته. الفكر القومي لم يكن موجوداً في منطقة الهلال الخصيب أو العالم العربي كونه عاش لقرون تحت هوية دينية انتقلت إلى العثمانيين وعمموها على هذا العالم الذي حكموه لمدة خمس قرون. حين باشر سعادته بدعوته كان يعرف تمام المعرفة أنه يقدم فكراً جديداً مغايراً لكل ما عرفته “سوراقيا” منذ القرن السابع الميلادي. وكان

نحن نعيش حالة هويات
طائفية واثنوية، ولم ندخل
العالم الحديث المبني على
الهوية الوطنية لأسباب
عديدة داخلية وخارجية.

يعرف أنه تحد شبه مستحيل أن ينتقل المجتمع من أولوية الهوية الدينية إلى الهوية القومية حيث تتساوى الأديان والطوائف أمام أولوية الولاء للوطن القومي بمدة قصيرة، لذلك تكلم عن “أجيال لم تولد بعد”. هذا لا يعني أن نتعاس عن واجباتنا بالتبشير والتعليم والتفسير، وإقامة المنتديات الفكرية، والحوارات، والمحاضرات والنقاشات، لبلورة المفاهيم وتوعية الرأي العام. هل قام بذلك الحزب السوري القومي الاجتماعي؟ هل قام المثقفون السوريون القوميون الاجتماعيون بهذه المهمة، أم تقوقعوا وبدأوا بمهاجمة الناس بدلاً من التحاور معهم؟

لا وجود لشعب في المشرق العربي، لأن مدلول الشعب مرتبط ارتباطاً وثيقاً بمفهوم الدولة الوطنية/القومية. نحن نعيش حالة هويات طائفية واثنوية، ولم ندخل العالم الحديث المبني على الهوية

الوطنية لأسباب عديدة داخلية وخارجية. فأين دور الحزب بقياداته ومثقفيه في نقل كيانات سوريا من حالة الى أخرى؟

لا أستطيع أن ألوم الشعب كما لا أستطيع أن ألوم طلابي الجامعيين اذا فشلوا في امتحانهم. حين يفشل الطلاب كنت ألوم دائما الاستاذ، ففشلهم هو نتيجة فشله في ايصال الحقائق لهم، كما يراها بالطبع. كل الذين آمنوا بمبادئ الدولة الوطنية/القومية، وتقاوسوا عن تعليم ادرانهم، هم المسؤولون عن الفشل الذريع الذي نعاني منه اليوم. والقاء اللوم على "الشعب" الذي هو غير موجود اصلا الا كطوائف ومذاهب واثنيات، هو هروب من المسؤولية.

كان من الافضل الاعتراف بأننا لم نحاول تغيير المجتمع، بل انهمكنا بالعمل على الوصول الى السلطة كبقية الاحزاب السياسية، بالرغم من أن سعادة نعت حزبه "بالاجتماعي" أي ان هدفه تغيير المجتمع.

المقال الثالث:

حوار متجدد حول

"فشل مشروع سعادته"

أحمد أصفهاني

كنتُ أتوقع بعض الردود والتعليقات المحدودة على مقالي الأخير "لا... مشروع سعادته لم يفشل". لذلك فوجئت بحجم ما وصلني مباشرة وما نُشر عبر وسائل التواصل الاجتماعي. وقد أظهرت طبيعة الملاحظات والانتقادات، الإيجابي منها والسلبى، أن القومييين الاجتماعيين تحفزهم المسائل المتصلة بأنطون سعادته مؤسس الحزب السوري القومي الاجتماعي وزعيمه، وتستحثهم الحوارات الفكرية في شؤون العقيدة القومية الاجتماعية.

ولا بد من تسجيل ملاحظة تمهيدية وهي أن التعليقات التي تمكنتُ من الاطلاع عليها لا تتشابه في مستواها ويمكن تصنيفها تحت ثلاث فئات. الغالبية حددت نقاطاً مهمة تستحق المزيد من البحث، وتساهم في إغناء الحوار؛ جماعة تنتمي إلى "خالف تُعرف" أو هم مهوسون بالاستعراض الكلامي لإثبات الوجود... ومتحجرون تستهويهم الحروف فيبتعدون عن مضامين الكلمة ومفاهيمها!

أعود الآن إلى التعليقات والانتقادات الجادة التي أضاءت على جوانب غابت عن مقالي الموجز أساساً. وهذا أمر طبيعي لأن المقال كان رداً على ما كتبه عبد المنعم علي عيسى في جريدة "الأخبار" متسائلاً: "لماذا فشل مشروع أنطون سعادته؟" إن أسلوب الرد الذي انتهجته محكوم بما تضمنه مقال عيسى. ولو أنني قصدت البحث في "مشروع سعادته" عموماً لكانت الكتابة مختلفة تماماً. وسأسمح لنفسي بجملة اعتراضية موجهة إلى من علق على مقالي قائلاً "إن سعادته لم يضع مشروعاً"، ويقصد بذلك أنه أراد نهضة، فأقول له: "صح النوم أيها العزيز. نحن نعرف أن سعادته أنشأ نهضة شاملة. ومقالي هو رد على كاتب غير قومي زعم أن "مشروع سعادته فشل"! فكان لزاماً تحريرياً أن نستعير عبارته كي نظهر الخلل فيها". ويذكرني ناشر هذا التعليق بأحد قادة الحزب التاريخيين عندما سأله أحد الصحافيين عن "موقف" الحزب من الأحداث، فأجابه بملء الثقة وكأنه يوحنا فم الذهب

العصر الجديد: “نحن لا نقف نحن نسير”... إنه الضعف المتلطي خلف عبارات لا قيمة لها، بل هو التهرب التافه العاجز.

بعد 1949 يحدث اختلاط
(وفي بعض الأحيان تناقض)
بين ما سعى إليه سعاد وما
خطت له القيادات التي
أدارت الدفة بعد استشهاد.

بعد التمعن في التعليقات، وإعادة قراءة مقالي بهدوء، كنتُ أتمنى لو أنني ركزت أكثر على سؤال أساسي كان يمكن أن يجنبنا الكثير من الأخذ والرد على وسائل التواصل الاجتماعي. وأقصد بذلك: ما هو مشروع سعاد الذي أعلن عيسى فشله؟ وسأحاول هنا الإجابة قدر المستطاع، مع إبداء ملاحظات أولية:

أولاً على المستوى الزمني، وقد لفت النظر إليها الرفيق شحادة الغاوي، إن “مشروع سعاد” يغطي الفترة من 1921 (يمكن أن نبدأ بتأسيس الحزب سنة 1932) ولغاية 8 تموز 1949. بعد ذلك يحدث اختلاط (وفي بعض الأحيان تناقض) بين ما سعى إليه سعاد وما خطت له القيادات التي أدارت الدفة بعد استشهاد زعيم الحزب. في مرحلة ما قبل 8 تموز نستشف من كتابات سعاد ونشاطاته ملامح من “المشروع” الذي أوقف حياته عليه، وتبين العقبات التي وقفت في طريقه. أما مرحلة ما بعد 8 تموز فتصبح جزءاً من تاريخ الحزب، ولا تُلزم سعاد بشيء. وأنا أؤيد الذين يطالبون بكتابة تاريخ الحزب. غير أن ذلك لا يكون إلا على أيدي رفقاء متخصصين، وحكماً لا يتم عبر وسائل التواصل الاجتماعي التي تتحكم بها “ثقافة الأصابع المتهورة”.

ثانياً، إن الحزب السوري القومي الاجتماعي والقيادات التي تعاقبت عليه منذ تموز 1949 لا يعبرون بالضرورة عن حقيقة “مشروع سعاد”. ولست هنا في وارد إطلاق الأحكام التعسفية والاستنسابية، تاركاً المهمة للمؤرخين القوميين الاجتماعيين الذين ستناط بهم مسؤولية كتابة تاريخ الحزب. وأكتفي بعبارة لسعاد مأخوذة من مقال “إمتطاء العموميات إلى الخصوصيات” بتاريخ 15 تشرين الأول 1943: “إن درس الحزب السوري القومي الاجتماعي ومبادئه وفلسفته وغاياته وحركته وأعماله شيء، ودرس الأشخاص الذين يُتفق أن ينضموا إلى صفوفه ونفسياتهم وغاياتهم وأهدافهم شيء آخر”.

ما سأكتبه الآن عن “مشروع سعاد الشامل” هو اجتهاد شخصي، ولا يُلزم أحداً غيري. على أمل أن ننخرط معاً في حوار هادف هادئ يليق بالقواعد المنهجية التي ننطلق منها جميعاً. فإن أصبت سينالني أجر الاجتهاد. أما إذا أخطأت، فأتمنى على قناصي الفرص المتربصين في كمائن التهشيم والترثرة والمماحكات أن يبادروا هم إلى التصحيح وتقديم البدائل!

نحن نعتقد بأن كل ما قام به
سعاد منذ 1921، في المغرب
كما في الوطن، هو عبارة عن
صخور نُحِتت بعناية فائقة لتأخذ
مكانها المناسب في عمارة
إنشاء الأمة.

أضع أمام القراء العبارات التالية لسعاد:

1 - “يقوم أنطون سعاد بأعظم تجربة تعرضت لها الأمة منذ قرون عديدة، ألا وهي إيقاظ الوجدان القومي وتأسيس الأخلاق القومية ورفع مستوى الأمة إلى مرتبة الأمم الحية”. (الأعمال الكاملة، المجلد 2 صفحة 232).

2 - "أشبه شيء بإنشاء الأمة السورية إنشاءً جديداً، لأنه يعني بعثها من مدافن التاريخ". (الأعمال الكاملة، المجلد 3 صفحة 309).

3 - "إن أمة جديدة فتية تظهر في التاريخ من أمة قديمة سقطت بعد نشوئها وطواها تاريخ مفجع قروناً عديدة". ("الجيل الجديد" العدد 1 - 3، تاريخ 4 نيسان 1948).

هذه المقاطع، ومثلها كثير في تراثنا القومي، تجعلني أعتقد بأن "مشروع سعادته" الأعلى هو "خلق" الأمة السورية خلقاً جديداً. هذه هي الأمنية الأعظم، والوصول إليها يتطلب سلسلة من "المشاريع" لبناء الفكر الجديد والإنسان الجديد والمؤسسات الجديدة من أجل الانخراط في مخاض "إنشاء الأمة السورية". وقد أسس سعادته الحزب ووضع مبادئه وأنظمتها الدستورية، وأراده مصهراً ومختبراً للأعضاء المنتقلين من مفاصد المجتمع القديم إلى رحاب "دولة الأمة المصغرة". وفي الوقت نفسه، اشتغل على صياغة النظرة القومية إلى الحياة والكون والفن. وأطلق الفكرة المدرحية كبديل فلسفي للصراع العالمي بين طرفين متناقضين. وقدم نموذجاً مثالياً للقيادة الفذة وفي الطليعة دائماً... وغيرها.

نحن نعتقد بأن كل ما قام به سعادته منذ 1921، في المغرب كما في الوطن، هو عبارة عن صخور نُحِتت بعناية فائقة لتأخذ مكانها المناسب في عمارة إنشاء الأمة. وإذا نظرنا بتجرد إلى ما أنجزه خلال حياته العاصفة القصيرة، ندرك لماذا يؤمن القوميون بأن مشروع سعادته لم يفلح. لا شك في أن مهمات حيوية كثيرة لم تُنجز، أو توقف العمل عليها، بعد غياب صاحب الدعوة. لكن هذه مسؤوليتنا نحن. ولذلك قلت في المقال السابق إن الأجيال التي عاصرت سعادته وأجيال اليوم (وليس الشعب بالمطلق) تتحمل مسؤولية مباشرة عن عدم الفلاح. إن مقياس النجاح والفسل في العمل النهضوي الذي أسس له سعادته لا يلتزم بمعايير الربح والخسارة، على أهميتها. من حق بعضهم أن يرى فشل "مشروع سعادته"، كما أن من حقنا رؤية عدم النجاح، وهو أمر مختلف عن الفسل. لكن ما ليس مقبولاً، بل هو جريمة موصوفة بحق الأمة، أن يتخذ بعضهم هذا الرأي أو ذاك لتثبيط الهمم، والتشكيك بقدرتنا على خلق المجتمع الجديد و"إنشاء الأمة السورية إنشاءً جديداً".